ابن طباطبا وعيار الشعر :-

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا الحسني العلوي فهو من العلويين الأشراف، كان مولده ووفاته بأصبهان، ولم يغادرها إلى غيرها، وأخذ العلم والأدب على أئمَّتها، وكان مشهورًا بالذكاء والفطنة وصفاء القريحة وصحة الذهن.

عاش في القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجريين، وتوفي سنة 322 من الهجرة، وجاءت حياته وسط حركة فكريَّة وعلميَّة عظيمة، وتكونت لديه شخصية ثقافية ذَوَّاقة في اختيار النصوص وقرض الشعر، فأبدع الكثير من الشعر، ودارت بينه وبين أُدباء عصره مناظرات.

وتظهر ثقافة ابن طباطبا ومعرفته العميقة بأساليب العربية من خلال كتاب "عيار الشعر"، وكُتُبه الأخرى التي تدور حول الشعر، مثل: كتاب "سنام المعاني"، و"الشعر والشعراء"، "وتهذيب الطبع"، و"كتاب العروض"، "والمدخل إلى معرفة المعمى من الشعر"، و"فرائد الدرر".

و حين تقرأ كتاب "عيار الشعر" تجده يتميَّز بالثراء النقدي؛ لأنه صادر عن رجل متخصص، تحدَّث عن الشعر على ضوء تجربته الشعرية، ومعاناته في الإبداع، على عكس نُقَّاد عصره الذين كانوا علماء في الشعر، وهذا يعني أن كتاب "عيار الشعر" يعكس شخصية الناقد المتذوِّق، البصير بالشعر، فالكتاب لبنة من اللبنات التي قامت عليها البلاغة العربية.

كما تأتي أهمية الكتاب على صغر حجمه من جهتين:

الأولى: أنه حاول أن يؤسس للشعر عيارًا – قياسًا – يميز به الشعر من غيره من جهة، والشعر من حيث كونه شعرًا من جهة ثانية، وهذا مهم وجديد.

والثانية: أن ابن طباطبا – الذي ظهر كتابه في الوقت نفسه تقريبًا الذي ظهرت فيه كتب أخرى تُعنى بالشعر – تميز عن سواه في أنه كان يميل إلى تغليب تذوقه الخاص؛ أي: إلى تجربته الشخصية في كتابة الشعر، ويظهر هذا في اختياره للنصوص والشواهد.

والمعروف الذي لا شك فيه أن كل جيل يتعلَّم اللغة من اللسان الذي سمعه، فإذا تسرَّب الضعف إلى اللسان المسموع، ضعفت اللغة، وأعني باللسان المسموع هنا: شعراء كل جيل، وعلماءه، وفصحاءه، والحارسين لضوابطه، والذين أودعوا قلوبهم وألسنتهم سرَّ العربية وجمالها.

من هنا كان ابن طباطبا حريص أن يقوِّم هذا اللسان، وأن يرشده إلى المقياس الذي ينبغي أن يقيس نفسه عليه، وهو اللسان الموروث من شعر الجاهلية وصدر الإسلام.

ويؤكد عبدالقاهر أنه من المحال أن يُفهَم الإعجاز بمعزل عن الشعر، وأن من يدرس الإعجاز بمعزل عن الشعر الجاهلي كأنه يدرس الإعجاز بمعزل عن الإعجاز نفسه، والإعجاز هو الحجة التي عليها آمن الناس، وهي باقية ما بقي التكليف.

هذا هو الهدف الذي يقف في خلفية كتاب "عيار الشعر"، وإن لم يذكر صراحةً، لكنك تلحظه خلف كل فقرة من فقرات الكتاب، وهو يتحدث عن براعة هذا الشعر، ووجوب حفظه، والإكثار منه، كما تراه في كثرة شواهده، وتحليله، وتعليقه، وحرصه على الاقتداء بالأحسن منه.

المعايير التي اعتمدها ابن طباطبا في عيار الشعر :-

المعيار الأول: اتِّباع سنة العرب في شعرهم:

فابن طباطبا أراد من الشعراء أن يلزموا هذا الأصل، وأن يسيروا خلف هذا الجيل الذي نزل فيهم القرآن الكريم، وأن يتبعوهم في معانيهم، وألفاظهم، وتشبيهاتهم، ونسجهم للشعر، فهم أهل البلاغة بلا منازع، وأصحاب البيان بلا مقارع، وإن لم يغترف الشعراء من هذه الينابيع الصافية، ولم يرجعوا إلى معدن الحسن، جاؤوا بتهويمات، وأشكال فارغة خالية من حقائق البلاغة، وأصول حركة اللسان .

ومن هنا تتسرب الذائقة القديمة إلى طباع المحدثين لينسجوا نسجهم، ويصوغوا صوغهم، ويبنوا الكلام كما كانوا يبنون، ولن يتمَّ ذلك إلا بمعرفة عاداتهم، وتقاليدهم، وخصوصياتهم، ومعتقداتهم.

وهكذا تنتقل الفصاحة من جيل إلى جيل؛ ولذلك تراه يسترسل في ذكر أشعارهم،

ويصفها بالبدائع، والمعاني اللطيفة الدقيقة، ثم يقول: "وهذه الأشعار تجب روايتها، والتكثر لحفظها".

الْمعيار الثاني: تحليل النص وتذوقه:

وهذا التحليل هو الذى يبرز فكر ابن طباطبا ورؤيته لبلاغة النص، وموطن الإبداع فيه، وكلما كشف لك سرًّا من أسرار اللغة، وقدرتها على الإبانة، كشف لك عن فكره هو، ورؤيته للإبداع، ونظرته لمواطن الحسن، وكيف يدلف إلى الدقائق الخافية ليبرزها .

وابن طباطبا وهو يحلِّل النصَّ يعمد إلى مكامن الدر فيه، وأمارات الحسن؛ أي: إنه يعمد إلى أدبية النص، أو شعريَّة النص، أو بلغة الأئمة الكبار يعمد إلى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة.

المهم أن ابن طباطبا – رحمه الله – بنى فكره على تحليل القليل من الشعر، وترك الشعراء ليقفوا على مواطن الفصاحة والبلاغة في الباقي .

كذلك نلمح في كتاب "عيار الشعر" نمطًا آخر من التحليل، وهو التحليل المنهجي؛ أعني: أنه بنى الكتاب على فكرة الطباق، فإذا ذكر شيئًا، ذكر ضده بعده، وإذا استشهد بأبيات حسنة جميلة لطيفة، أتبعها بأبيات غثَّة رديئة، وهذا ضرب من التحليل المنهجي

المعيار الثالث: تحكيم العقل:

حين تُراجع كتاب "عيار الشعر" ستجد روحًا منطقيةً، جعلت البعض يدعي تأثره بالمنهج الفلسفي أو بأرسطو، أو أن عقلانيته تصله وصلاً وثيقًا بالمعتزلة، وكل ذلك سببه أن الرجل يريد من الشاعر أن يعد أدوات كثيرةً، منها وضع الأشياء في مواضعها، أو كما عبر هو: "كمال العقل الذي به تتميز الأضداد، ولزوم العدل، واجتناب القبيح...

وتحكيم العقل عنده يعني جمع أدوات الشعر، وليس معناه العقل المنطقي العلمي، فهو يرشد إلى أدوات يجب إعدادها قبل مراس الشعر، وتكلف نظمه، فمتى تعصت عليه أداة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة،

هذه الأدوات هي :-

كمال العقل الذي به تتميز الأضداد.

ولزوم العدل، وإيثار الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء في مواضعها، وهذا معناه قبول الحواس لتذوق الفن في العقل .

إن العقل والفهم والذوق عند ابن طباطبا بمعنى واحد، بل لو أنك أضفت إليها الصدق لم تكن بعيدًا، المهم أن تحكيم العقل كمعلم ومعيار في فكر ابن طباطبا له حظٌّ وافر.

ولذلك عدَّه النُّقَّاد صاحب نظرية ذوقيَّة، وعدوا كتابه ومشروعه كله في النقد مشروعًا ذوقيًّا، يقوم على دعامتين.

الأولى: الذوق، وهذا من الناحية النظرية.

الثانية: التطبيق الفعلي على القصائد المدروسة.

وقد ذهب الدكتور إحسان عباس إلى أن ابن طباطبا اعتمد على الذوق المعلل في منهجه، وكذا على العقل الثاقب في النقد حتى استطاع أن يكشف العلاقات الجماليَّة.

المعيار الرابع: كثرة الشواهد:

كان ابن طباطبا يطرح الفكرة أو الرأي، ثم يلتمس له من الشواهد ما يقوي به هذا الرأي، أو تلك الفكرة، ولما كان مخزونه الشعري وافرًا، بل قل: لما كان شاعرًا قد اطلع على شعر العرب، وحفظ الكثير منه، كانت استشهاداته لا تتوقف حتى يقتنع القارئ .

المهم أن طرح الفكر يبدأ أولاً، ثم يأتي بعد ذلك الشعر منهمرًا على الفكر ليؤصِّله، لذلك تراه يقول بعد ذكر مفهوم الشعر وأدواته وكيفية صياغته وصناعته: "ونذكر الآن أمثلة".

وهذا الصنيع تراه عند عبدالله بن المعتز في البديع، حيث يذكر رؤيته للباب وتعريفه له، ثم يسرد الأمثلة عليه ويعلِّق على بعضها.

وأرجع معك إلى "عيار الشعر"، وأقول: إنه ليس مجموعةً من الأشعار، وإنما هو تحديد لموازين الشعر الجيد وتأطيره ورسم حدوده؛ سواء كان ذلك بالفكرة

البلاغيَّة، أو بالشواهد الشعريَّة. .

وعلى هذا فإن صنيع ابن طباطبا في كتابه هو الأنموذج الأمثل في مطابقة حال الكتاب لحال المقصودين، وهم الشعراء، ولذا قد يغمض على القارئ العادي فكر ابن طباطبا وحركة عقله وإعراضه عن التحليل والبيان، ولا عجب في ذلك، فالكتاب مصنوع للشعراء، وهم على وعي كامل بمراده حين يتابع بين الشاهد والشاهد دون كلمة .

المعيار الخامس :حضور السامع في الفكر:

في كتاب "عيار الشعر" تلحظ حضور المتلقي وبقوة في فكر المؤلف، حيث يقدم له ما يستفزه من مرغبات في الشعر العربي القديم، وما يبعده عن كل قبيح.

فالعملية الإبداعيَّة عملية مشتركة بين الشاعر والمتلقي، وحضور المتلقي في ذاكرة وفكر الشاعر تجعله – أيضًا – يبني الكلام بناءً يناسب حاله ويطابق واقعه، فتراه يتحدث عن الابتداء بما يعلم السامع، وما يحسُّ به السامع.

بل إنه يشدد على الشعراء؛ ليتقنوا شعرهم من أجل السامع، فيقول: "فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعةً متقنةً لطيفةً مقبولةً حسنةً مجتلبةً لمحبة السامع له، والناظر بعقله إليه مستدعيةً لعشق المتأمل في محاسنه، والمتفرس في بدائعه".

المعيار السادس : تدريب الشعراء :

من معالم الفكر في كتاب "عيار الشعر" اعتماد ابن طباطبا منهج التدريب؛ لأنه أخذ على عاتقه مهمة طبع اللسان الحديث بطابع اللسان القديم في الشعر، وهذا أمر يحتاج مع العلم صبرًا، وقدرةً على التدريب، وإعادة الأمر مرةً بعد مرة، وممارسة النقد بنفسه .

ثم ينتقل في وسط هذا التدريب على النقد إلى التدريب على الأساليب وحسن استخدامها، وأولى هذه الأساليب عنده التشبيه، فيقرر له عنوانًا ليوضح كيف يتمُّ نقد الأسلوب، وليس هذا تضاربًا ولا خلطًا؛ لأن الحديث عن التشبيهات البعيدة التي لم يلطف أصحابها فيها، ولم يخرج كلامهم في العبارة عنها سلسًا سهلاً، كان المقصود منه أن يحذو الشعراء في نقدهم للتشبيه حذوه، وأن يعرفوا مواطن الخلل في الصورة

كما فعلت أم جُنْدَب بنقد بيت زوجها امرئ القيس حين قال:

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ = وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَخْرَجَ مُهْذِبِ

فقالت: "إن فرسًا يحتاج إلى أن يستعان عليه بهذه الأشياء لغير جواد".

وابن طباطبا وهو يذكر هذه النماذج يستحضر في فكره تدريب الشعراء على النقد، ومداخل ذلك؛ سواء من حيث الألفاظ أو المعاني.

فالنقد قائم عنده على تلك اللفتات البلاغيَّة أو استخدام الكلمة في غير موضعها، كما في بيت المسيب بن علس:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ = بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدِمِ

فسمعه طرفة، فقال: استنوق الجمل.

المعيار السابع :: إبراز العيوب:

في منهج ابن طباطبا إلحاح شديد على إبراز العيوب، وذكر مكامن القبح في الشعر؛ لأنها مزالق قد تخفى على المحدثين، وجوهر التربية النقديَّة قائم على تبصير الناشئة بمواطن الزلل؛ لذلك أخذ شوطًا كبيرًا في بيان الشعر المستكره الألفاظ المغلق القوافي والرديء النسج، وكل ذلك يرسم فكره النقدي والبلاغي في إيجاد شعر خال من العيوب، ولذلك تراه يحذِّر من عيوب الأولين، وعدم السير وراءهم حين يحيدون عن الطريق؛ لأن الاقتداء بالمحسن وليس بالمسيء، فلا يكن أحدهم إمَّعة: إن أحسن الشعراء أحسن، وإن أساؤوا أساء.

ومن الشواهد التي نبَّه على الخلل فيها ما يتعلَّق بكراهة الألفاظ، في قول أبي العيال الهذلي:

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي = صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

فذكرُ الرأس مع الصداع فضل، كما أن الصداع لا يكون